العربية كانت عوناً للإسلام على صهر الشعوب في بوتقة إسلامية الفكرة عربية الأسلوب

بقلم الأستاذ عبدالله العقيل

وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية
(الكويت)

ان الجواب الذى لاجدال فيه عن السؤال الاول، فى صورته المجملة، هو الايجاب وتقرير وثاقة الارتباط بين انتشار الاسلام وانتشار العربية ، والادلال ببعد مدى هذا الارتباط وعمقه ، واصالته ورسوخه .

وللاجابة عنه جوابا شافيا نتتبع الاسئلة الايضاحية .

1) ـ ان الذى يتأمل العلاقة بين الاسلام واللغة العربية يجد ان دين الاسلام باعتباره وضعا الهيا ينظم تفكير الانسان وسلوكه بأكمل صورة عرفتها البشرية ما هو الا عقائد وافكار واحكام ومبادىء ذات معان ودلالات . ولابد لتلك المعانى من قالب لفظى وشخوص نطقية ترتسم عليها تلك المعانى **فالاسلام من جهة يحمل عوامل بقائه فى ذاته ، ويشق طريقه باشعاعه وهديه ،** مما لا يصحح قول القائل : « لولا العربية لما انتشر الاسلام » ويحتم تحويل تلك العبارة الى **(لولا العربية لما اتسع ظهوره ورسوخه فى النفوس ،** والتأثير والروعة لكتابه. ومن جهة اخرى فالاسلام قد وجد فى اللغة العربية التى اختارها الله له من بين اللغات ، مركبا حسنا واناء صافي الاهاب صادق التعبير عن عمق ذلك الدين ودقة مفاهيمه ووضوح مبادئه ، وسعت ذلك الكتاب الحكيم لفظا وغاية ، ولم تضق عما فيه من مبادىء وعظات ..

كما ان **اللغة العربية قد وجدت فى الاسلام سلكا ينظم جواهرها** ويحسن تنسيقها ، فيسلط الاضواء على متخير تلك اللغة حين يمنحه صفة التداول ، ويؤخر عن الاستعمال ما لا تخلو عنه كل لغة من غريب المعنى او حوشي اللفظ . فيكفل لتلك اللغة عوامل البقاء والانتشار ثم ينطلق بعد ذلك متيحا لها الانتشار مع انتشاره حتى يمكن ان يقال : **حيثما ركز الاسلام وضعت نواة التعريب .**

ولنستعرض فى ايجاز ما قدم كل من هذين الشقيقين للآخر من حسنات كان من نتيجتها تلك العلاقة الوثيقة . **فبالنسبة لفضل الاسلام على العربية :**

1 ـ حينما اختار الله لكتابه اللغة العربية فانزله بها قد اعطى اللسان العربى « صفة القداسة » وبوأ اللغة العربية منزلة روحية يعترف لها بها كل من اعتنق الاسلام دينا وارتضى كتابه دستورا ، فاذا باللغة العربية التى كانت تدعى (لغة عدنان وقحطان) يصبح من ابرز اسمائها **(لغة القرآن)** ، واستتبع هذا ان يشعر لخدمتها وابتغاء الخير لها كل مسلم مهما كان لسانه الذى تعلمه مع لبن امه فرأينا **اكثر واضعى معاجم العربية من غير ابنائها كالصاغاني والفيروز ابادى وابن منظور الافريقى** ـ وشبه ذلك فى مصنفى كتب النحو والصرف والادب فاكثر مؤلفيها هم من العرب محبة

ولسانا لا دما وولادة ـ ويؤكد ذلك ان تلك العلوم اللسانية كلها لم تبعث العزائم على وضعها وتدوينها الا لخدمة القرآن كما يعرف من حوادث وضعها . .

2 ـ وبعد منحه اياها ذلك الاعتبار وتلك المكانة ، اعقب ذلك بالوسائل العملية التى تحقق انتشار هذه اللغة وجريان الفاظها على كل لسان ، فالآذان الى الصلاة بكلمات من لب العربية ، وكذلك الاذكار والادعية وبعضها مناسك فى فريضة الحج. وكان من اركان الصلاة (القراءة) ولا تصح الا بالعربية ، فيستدعي ذلك ان يعكف كل مسلم من غير العرب على تعلم ما يقيم به صلاته ثم لن يشبع نهمه بالاقتصار على فاتحة الكتاب وصور منه بل تنشط الرغبة فيه الى جمع كتاب الله فى صدره والنظر فى معانيه ومبانيه واذا بهذا **المسلم الاعجمي ينقلب عربي اللسان** يسعى لصالح تلك اللغة مخلفا وراءه لغة آبائه واجداده .

3 ـ واذا سما المسلم الاعجمى ايضا الى مرتبة الاجتهاد واستنباط النصوص ، فمن ابرز الشرائط المرسومة لهذه المرتبة ان يتمكن من العربية معرفة وفهما ، لانها هى السبيل الى استنباط الاحكام من معادن النصوص ، وهى **الاداة لتمييز الدلالات المختلفة التى تحتويها الفاظ القرآن والحديث** ، وبخاصة آيات الاحكام فى كتاب الله العربى المبين ، والمستوى المطلوب للمجتهد لعله من ارفع المستويات فى معرفة اللغة العربية ، تبعا لدقة آيات الاحكام وصفة العموم والايجاز فى تلك الآيات .

4 ـ لقد قدم الاسلام للغة العربية عوامل البقاء والشيوع حينما اصطفى منها لغة قريش ـ مع قدر صالح من لغات او استعمال القبائل الاخرى ، وذلك حينما جعل لهذه اللغة المختارة عمادا تدور حوله هو القرآن المنزل بلسان قريش من بين العرب ، كما انه بهذا قد اراح العربية من معايب لفظية عرفت بها بعض القبائل كالعنعنة والكشكشة والكسكسة لا مجال لتفصيلها ، وطوى بهذا اكثر الحوشي من الالفاظ والمستغلق من المعانى فاصبح ذلك حبيسا فى المعاجم الكبرى او موءودا وراءها . . .

ولولا هذا الصنيع لتمددت اللغة العربية، وتنوعت مشتقاتها الى حد ان تصبح تلك الاستعمالات القبلية لغات مستقلة تحوج الى التراجم . . كما حدث ذلك فى اللغة اللاتينية وما تفرع منها من لغات انقطعت صلتها بها تماما .

5 ـ وتعرضت العربية لنكبات خانقة من حملات الشعوبيين وارجافهم ، ثم من جوائح الغزاة التتار ، والصليبيين ، والمستعمرين آخر الامر وما مكروا به لاذابة مستعمريهم فيهم وازالة عوامل التميز واشدها بعد الدين : اللغة ، فكان **الاسلام هو الصرح المنيع** دون تلك الحملات ، وكان هو الموقد الدائم الاشعاع لمحو تلك الظلمات عبر العصور

هذا ما يشار اليه ـ لا على سبيل الاستقصاء ـ من ايادى الاسلام على اللغة العربية مما يؤول الى **الحكم القطعى بانه لولا الاسلام لما انتشرت العربية .**

اما خدمة العربية للاسلام : فلا شك ان العربية كان لها اثر بارز فى حياة دين الاسلام ، بحيث لم يكن ليتاح له ما اتيح من سعة انتشار لولا ما اقتضته الحكمة الالهية باختيار تلك اللغة القوية الغنية المتجددة الحياة . ولا نقول لولا العربية لما انتشر الاسلام فان فى ذلك مغالاة ، لان **سبب انتشاره هو ما فيه من هدي واصلاح وتنظيم** ، وانما سعة الانتشار هذه مردها اتخاذه العربية لسانا وما ادى اليه كونها لسانا للاسلام بان يصبح العرب هم اللبنة الاولى فى صرحه العظيم من بين الشعوب ، وكان ذلك كسبا لمعادن نفيسة من البشر تتقن فهم دعوته وتحسن اخراجها للناس حتى بلغت دعوة الاسلام ما بلغته من ظهور وانتشار .

1 ـ وذلك لان **العربية** وفت بجميع الاغراض التى تطلبها فيها الاسلام باعتبارها (لغة الاسلام) ـ ولا اقول (لغة دينية) له لانها **ليست لغة العبادات والطقوس كما هو الحال فى اللاتينية ، بل هى لغة القرآن والحديث** بما فيهما من نظم شاملة للحياة فى شتى جوانبها الروحية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية فهى بهذا **لغة الاسلام** ـ وتوفيتها بأغراض الاسلام ظاهر من انها وسعت كتاب الله الفاظا ومبادىء ، وكانت فيها الكفاية للتعبير عن المعانى المختلفة والعلوم المتعددة التى ولدت بعد نزول القرآن وورود السنة كالتفسير واصوله والتجويد والقراءات ومصطلح الحديث واصول الفقه والفقه ، بل العلوم الاخرى التى تجددت فيها الحياة باحتضان الاسلام لها وعناية علمائه بها كالعلوم العقلية والاجتماعية . . . **حيث زودت اللغة العربية علوم الاسلام بكل ما احتاجته من مصطلحات ومفاهيم وأساليب** ، وكان فى هذا صيانة للاسلام من العوز الى لغات اخرى يخل اعتبارها بما يحرص عليه من عوامل الوحدة بين معتنقيه .

2 ـ انها بما احتوته من اساليب بلاغية ووسائل بيانية كانت استجابة صادقة لما اراده الله فى كتابه (القرآن) من نزوله على وجه الاعجاز فى الفاظه ومعانيه ومبادئه ، خلاف ما كانت عليه الكتب السماوية التى لم يكن لفظها معجزا ، ولذلك لعبت بها التراجم التى كانت تعتبر هى الكتاب نفسه فى حين ان القرآن العربي ،النزول والاسلوب تعالى عن الترجمة باستحالة مادية ، واعتبر ما وضع له من ترجمات : نقلا لمعانى القرآن لا لالفاظه .

3 ـ ان **اللغة العربية** ـ بما تميزت به من خصائص ـ قد **ساهمت فى انتشار الاسلام** وعمق تأثيره ، من جهة ان غلبتها على اللغات الاخرى التى كانت لدى الشعوب الاسلامية ـ بعوامل قوتها الذاتية بعد عامل اعتبار الاسلام لها ـ جعلت مسلمى تلك الشعوب اقرب الى فهم الاسلام بفهم كتابه والتعمق فى اسراره وحكمه ، ولا شك ان **العربية كانت بهذا عونا للاسلام على صهر الشعوب فى بوتقة اسلامية الفكرة عربية الاسلوب** ، ومن الواضح ان عوامل الوحدة كلما ازدادت وتوثقت زادت فى تماسك الكيان الاسلامى وضمنت بقاءه .

ومن هذا العرض السريع يتبين ان التلازم بين الاسلام والعربية على اشده ، وان سببية الاسلام للعربية اكيدة لا مراء فيها . اما اثر العربية على الاسلام فهى ليست سببا لاصل انتشاره ، بل كانت عاملا بارزا من عوامل امتداده وخصيصة فى خصائصه الهامة، كما هو الحال فى العوامل الاخرى لسعة انتشار الاسلام مثل اختيار المنطقة الوسط (جزيرة العرب) والامة القادرة على حمل امانة التبليغ لما فيها من احتفال بالمبدأ ودفاع عن الفكرة ، واصطفاء محمد بن عبد الله لرسالة الاسلام وخاتما للانبياء . فهذه العوامل كلها ـ ومنها كون العربية لسانا للاسلام ـ ذات اثر كبير فى انتشار الاسلام بالشكل الذى حصل .

ومن الحق ان يقال : **ان صلة العربية بالاسلام صلة حاجة وافتقار** ، ونتيجة ما افادته من تلك الصلة تحقيق البقاء لها والانقاذ من مصير العدم الذى كان يتهددها ، اما **صلة الاسلام بالعربية فهى صلة رفه وكمال** لتحقيق مصلحة تحسينية لا حاجية ولا ضرورية بالمصطلح الاصولى ـ اذ لولاها لما اتسع انتشاره ولا استوفى اغراضه الكمالية ، اما مجرد الانتشار فهو ليس بحاجة الى العربية او غيرها لان عوامل البقاء موجودة فيه بما يحتوى عليه ذاتيا من نظام هداية وسبيل فلاح للانسانية جمعاء .

2) ـ من الملحوظ بوضوح ان الوعي الاسلامي بالنسبة للمثقفين والوازع الدينى بالنسبة لهم ولغيرهم يقوى كل منهما كلما كانت لغة الضاد فى قوة وازدهار ، ذلك لان **المعانى الدينية والعلوم الشرعية التى هى المنابع الثرة لتغذية الوعي الاسلامي قد صيغت بلغة القرآن** ، ولا يمكن التعلق الشديد بتلك المنابع الا بتوفر وسيلة الاستقاء واهلية الانتفاع ، وذلك يرتفع ويهبط بخط بيانى مواز لما تكون عليه العربية تماما .

وبالاستناد الى بعض ما مر سابقا من افكار لامناص من التسليم بان **تجديد الدين ومواصلة الاجتهاد الفقهى والفكرى رهن بالتمكن من ادواته** واولها ان يكون من يسمو الى الاجتهاد قد ثقف اللغة وتمكن من درك دلالاتها وفهم اساليبها وذلك كله يسهل حينما تكون الفرص مهيأة فى صعيد المجتمع لامداد المجتهد بتلك المكنة بيسرة وسهولة ، كما كان يحصل فى عصور الاسلام الاولى حيث كانت العربية فى ازهى عهودها ، وكان علماؤهم ومجالسهم العلمية فى الغاية من الكثرة والقوة ، فرافق ذلك وفرة المجتهدين وتجديد الدين بالمجددين .

ونقيض ذلك ما حصل فى عهود ضعف العربية ضعفا حقيقيا باعتزالها كلفة رسمية كما حصل فى الخلافة العثمانية ، او ضعفها حكميا بالالتفات الى استظهار قواعدها دون تذوق ولا تعمق كما حصل فى عهود المماليك وما تلاها ، ولذلك لم يكن لتلك العصور ان تجود بالمجتهدين الا ما ندر .

وكذلك الحال بالنسبة للوازع الدينى فانه يسير بتناسب دقيق مع قوة العربية وضعفها ، لان تأثير القرآن والحديث فى المخاطبين بهما لا يتم الا بادراك مراميها والانتباه لما فيهما من هدى ووعظ وتبشير وانذار وذلك كله مصوغ بأساليب عالية لا يحس بقوتها الا من كان له من العربية نصيب كاف **فالوازع الدينى والوعي الاسلامى متناسبان قوة وضعفا مع حال اللغة العربية** فى كل زمان ومكان .

3) ـ ان تأثير الفكر الاسلامى عن طريق لغة القرآن فى اللهجات الاقليمية فى البلاد العربية وفى اللغات المحلية فى البلاد الاسلامية التى لا تنطق بالعربية ـ كبير جدا . وتبدو معالمه فى القديم والحاضر . اما فى القديم فقد كان من نتائجه **تعريب رقاع واسعة بعد الفتح الاسلامى حتى اصبحت عربية اللسان والتجنس كالمغرب كله والعراق والشام**

ومصر والسودان فانمحت بعض اللغات المحلية ، وضمر بعض آخر منها . كما كان **للحروف العربية هيمنتها على جميع تلك اللغات** الى زمن قريب اما الآن فان النتيجة نفسها تبدو بصورة اضعف بسبب النعرات القومية التى اذكيت نارها ، حيث نجد مئات بل آلاف الالفاظ العربية الشرعية منبثة فى تضاعيف تلك اللغات مع بعض التراكيب او القطع القصيرة التى هى من قبيل الادعية والاذكار ، مع **تطلع دائم الى التعريب** الفردى او الجماعى لتلك الشعوب الاسلامية فى آسيا وافريقيا .

ومثل ذلك الاثر نجده فى اللهجات الاقليمية فانها مهما كان لها من فشو ورواج فهي تقصر عن ساحة العلم **فالدروس الدينية ـ حتى للعامة ـ والخطب والمواعظ، كل ذلك بفضل القرآن لا يزال باللغة الفصحى النقية ،** ولاجل ذلك يشعر كل فرد ان من متممات الدين تقوية نفسه فى العربية ومضاعفة علمه بها .

وفى هذا المجال لابد من المقارنة بالفكر الدينى ـ غير الاسلامى ـ لبعض العرب الذين ما زالوا يدينون بالمسيحية ، فهم قد انساقوا نهائيا مع لغاتهم المحلية ولهجاتهم الاقليمية ، بل ان كتابهم الدينى رغم انه لا يؤثر لغة على لغة ولذا تناولته التراجم المختلفة ـ كان حظه من العربية ضئيلا جدا ، وكانت ترجمته العربية فى غاية الركاكة بل هى اشبه بالعامية او الاجنبية المترجمة ترجمة حرفية مما سوغ للاديب البارع مصطفى صادق الرافعى ان يدعو لغة الانجيل بالجملة الانجيلية ، واثبت بالوقائع انه كان هناك تعمد فى ذلك تحاشيا من الجملة القرآنية التى هى فى الذروة من الفصاحة والبيان ، وفضلا عن ذلك فان معظم الدعوات الى العامية حمل رايتها من لم يحمل قط الفكر الاسلامى ملة او تعلقا . ويتبين ذلك من الكتاب النفيس (تاريخ الدعوة الى العامية) للدكتورة نفوسة سعيد ومن كتاب (اباطيل واسمار) للاستاذ محمود احمد شاكر .

فالفكر الاسلامى بفضل القرآن عاصم من قواصم الغارات المختلفة على لغة الضاد من المستعمرين والمبشرين والمستغربين .

4) ـ من الواقع المؤلم ان يكون للهجة الاقليمية هنا تأثير فى التعابير العربية المحلية ، وهذا امر لا تنفرد به الكويت بل قد لف العالم العربى كله . واذا اخذنا بالتقسيم الخماسى للهجات الاقليمية الى (حجازية ـ وسورية ـ وعراقية ـ ومصرية ـ ومغربية) فان اللهجة الاقليمية فى الكويت مزيج من (الحجازية والعراقية) بسبب الجوار المشترك .

وهذه اللهجة فيها عوامل قرب من الفصحى بل ايغال فيها احيانا فى الالفاظ او التراكيب ، كما ان فيها عوامل رداءة فى العربية وحياة بعض الاساليب المهجورة او المعايب اللفظية (كابدال الجيم ياء ، وحذف بعض الحروف من وسط الكلمة او ادغامها ، وتحريف ضبط بعض الالفاظ) وكذلك فيها عوامل اجنبية محض ، حيث قد تسربت كثير من الكلمات (الانكليزية) وتقلبت على الالسنة كانها عربية حتى ان بعضها اخذه التصريف والاشتقاق مع كمية وافرة من اسماء الادوات فى السيارة وغيرها من الاجهزة الحديثة .

وفضلا عن ذلك فان هناك قسطا من لغة الاذاعة والتلفاز ـ على قلة ـ والمسرح ـ على كثرة ـ لا يزال باللهجة العامية الكويتية ، وهذا كله خطر ماثل على الفصحى ، ولذا ينبغى تحامى الكلمات الاجنبية باحياء الكلمات المغنية عنها ، ولو على سبيل المجاز او الاشتراك او التسمح فى تحديد الماهيات ، وبأسلوب التعريب الذى نهجه الاقدمون ومكنوا به اللغة من هضم عدد من الكلمات وتمثلها حتى غدت جزءا من العربية . اما بالنسبة للهجات المحلية فينبغى تحاشيها نهائيا فى مجالات الثقافة الخاصة او الشعبية ، ويجب تحديد تداولها فى السوق فقط الى حين ، ولذلك استحسن الدكتور محمد محمد حسين تسمية تلك اللهجات باللهجة السوقية ولا ينبغى ان تجاوز السوق الى لغة الثقافة الشعبية فى الاذاعة ونحوها ولا يسوغ ان يبقى لها حظ فى الادب الا ما كان من قبيل الامثال الشعبية مع الاستغناء عما له نظير فصيح لانه يحوز صفة العموم والتداول الواسع لكل من يمت الى العربية بسبب.

5) ـ ان المكانة التى يجب ان تحتلها العربية هنا بالنسبة للغات الاجنبية هى مكانة الصدارة والاغلبية وهذا ما تصبو اليه الآمال بالاهتمام بالعربية فى التعليم واشتراط درجات لها اكثر من غيرها من المواد **والواقع ان اللغة الانكليزية** ـ بوصفها اللغة الاجنبية هنا ـ **لها حظ وافر من الاهمية يخشى منه** اذا لم يضاعف الاهتمام بالعربية ، ولذلك يجب ان تكون للعربية منزلة خاصة لاتساميها فيها لغة اخرى مهما كانت الحاجة اليها ماسة فى البعثات او المصطلحات العلمية، وينبغى ان ينشط التعريب للفظة والاسلوب ، والامل معقود على مكتب تنسيق التعريب الدائم التابع للجامعة العربية ان يحقق تلك الامانى ، وفق الله القائمين عليه الى ما فيه خير العروبة والاسلام .